ملامح النقد الاجتماعي في شعر معروف الرصافي

د. محمد شهاب الدين[1]

المقدمة:

يُعدّ معروف الرصافي من أبرز شعراء العصر الحديث، وقد تميّزت شخصيته بعدة سمات مهمة جعلت منه صوتًا صادقًا في مجتمعه. اتسمت شخصية معروف الرصافي بالجرأة والصراحة، إذ كان لا يخشى قول الحق مهما كانت العواقب، فهاجم الفساد الاجتماعي والسياسي بجرأة واضحة. كما عُرف بحسّه الإنساني العميق، حيث دافع عن الفقراء والمظلومين، وجعل من قضاياهم محورًا رئيسيًا في شعره.

وكان الرصافي ذا نزعة إصلاحية، يؤمن بضرورة التغيير والتقدم، فدعا إلى نشر التعليم ومحاربة الجهل، وعدّ العلم أساس نهضة الأمم. كذلك اتسمت شخصيته بالوطنية الصادقة، فعبّر عن حبّه لوطنه العراق واهتمامه بقضايا الأمة العربية. شخصية معروف الرصافي تمثّل نموذجًا للشاعر الملتزم بقضايا مجتمعه، الذي جمع بين الجرأة، والإصلاح، والإنسانية، والوطنية.

الكلمات المفتاحية: العراق، التجديد والإصلاح، الشعر والنثر، نهضة شعرية، تعليم المرأة، قضايا المرأة.

ملامح شخصية:

ولد معروف الرصافي في بغداد عام ١٨٧٥م، وأخذ العلوم الابتدائية في الكتاب المحلى، ثم التحق بالمدرسة الرشيدية، ولم يتمكن من التخرج فيها ولم يحظ بنيل الشهادة منها، فتلمذ على محمود شكري الألوسي، وأخذ منه علوم الفقه والمنطق واللغة العربية، وبعد إتمام الدراسة، انشغل بوظيفة التدريس في المدارس الابتدائية الرسمية، و ترقى وعين أستاذ الآداب العربية بالمدرسة الإعدادية الرسمية ببغداد، وقد كتب الرصافي في ذلك العصر عدة قصائد لتوحيد الصف ضد المظالم والاستبداد، و حينما

1 : أستاذ مشارك، قسم دراسات العرب، جامعة اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية، حيدر آباد

أعلن بالدستور ذهب إلى الآستانة، ونجح في اكتساب الوظيفة في " المدرسة الملكية من أهم المؤسسات التعليمية المؤقرة الشهيرة 1.

وكان مؤيدا متحمسا للخلافة العثمانية، ومن أجل ذلك لما قام بعض العرب المناداة ورفع الأصوات ضد الخلافة العثمانية ، فقد قام الرصافي بهجائهم ، وعقب الحرب العالمية الأولى انتقل إلى دمشق، وعين مدرسا في دار المعلمين بمدينة القدس، وبعد فترة، عاد إلى بغداد فأسندت اليه نيابة الرئاسة لـ "لجنة الترجمة والتعريب " وقام بإصدار جريدة " الأمل اليومية، التي لم تتمكن من مواصلة السير و توقفت خلال ثلاثة أشهر، ولم يزل الرصافي يترقى من منصب إلى آخر حتى أصبح رئيسا لـ " لجنة الاصطلاحات العلمية " وتنحى عن الوظيفة وانفصل في عام ١٩٢٨م، وانتخب خمس مرات في ثماني سنوات عضو المجلس النواب، وشارك في ثورة رشيد عالي الكيلاني التي باءت بالفشل، فاختار الانزواء عن الحياة العامة، وظل يواصل جهوده العلمية والأدبية وانتقل إلى جوار رحمه الله في عام ١٩٤٥م ببغداد . ومن أكبر مآثره هي ديوانه الذي نشر من مختلف الدول العربية، وهذا بالإضافة إلى الإنتاجات والمؤلفات الأخرى التي تجاوز عددها من خمسة عشر مؤلفة في موضوعات علمية وأدبية مختلفة2.

مظاهر النقد الاجتماعي في شعره:

حاول الرصافي كسلفه الزهاوي لإدماج الادب بالعلم ولكنه فشل فيه ومن ميزات شعر الرصافي المهمة أنه يبالغ في التأكيد على حماية القيم الإنسانية، و على سبيل المثال: تصور الحرية عنصر مهم في شعر الرصافي، ومشاعر الإخاء والمواساة جزء من القيم النبيلة، والرصافي يعتني بهذا الجانب اعتناء بالغا ، ويلفت أنظار الآخرين ويسترعى انتباههم إليه ، وهكذا يؤكد الرصافي على المجاملة الدينية والتناصح المذهبي ، ويهتم بها كل الاهتمام، ويؤاسى مع المستضعفين والطبقات البائسة ، وينتقد على المفاسد الاجتماعية ، ويتبلور من دراسة قصائده أنه كان يريد إحداث ثورة إصلاحية عارمة، ويتجلى من شعره

[1]: تاريخ الشعر العربي الحديث، ص: ٤٠٠-٤٠١

[2]: أعلام النثر والشعر في العصر العربي الحديث، ٣٠٧/٢ - ٣٠٨

إنه كان رجلا مصلحا صادقا، وعلى سبيل المثال، إذا تناولنا قصيدته المعروفة " المطلقة " نرى أنه مقلق ومضطرب على المفاسد الاجتماعية، وهكذا قصائده الأخرى " الأرملة المرضعة " و "ام اليتيم " و " الفقر والسقام وما إلى ذلك من القصائد تبدى الجوانب المظلمة للحياة الاجتماعية، وتدعو إلى إصلاحها، فنستطيع أن تنظر إلى نبضة قلب الشاعر من وراء ستار الأشعار.

وهكذا نجد في شعره دعوة إلى إصلاح النظام السياسي ايضا، والقصائد التي تبث رسالة الإصلاح السياسي، تظهر من دراستها الحقيقة أن الشاعر يحمل قلبا مضطربا رقيقا، يريد إنقاذ الأمة من سياسة الاستغلال والفساد وقصائده "إيقاظ الرقود " و "رقبة الصريع و "تنبيه الغافلين" تستحق الدراسة.

الأستاذ الدكتور شوقي ضيف يقول:

"والرصافي من هذه الناحية يكتظ قلبه بمشاعر إنسانية رقيقة نراها ماثلة في كل جانب من ديوانه إذ يدعو دعوة واسعة إلى التعاطف الإنساني والبر بالفقراء والمعوزين، وأيضا فإنه يدعو إلى التخلي عن كل ما يشين اخلاق قومه وعقولهم، ولعله من أجل ذلك كان يشيد دائماً بالعلم وانشاء المعاهد والمدارس كما كان يدعو إلى إعطاء المرأة حقوقها، فهو يريد أن يزيل كل الحواجز التي تعوق شعبه عن النهوض والوقوف على قدميه بين شعوب العالم. ويتراءى في تضاعيف ذلك هجوم واسع على علل شعبه الاجتماعية. فمن ذلك أن نراه يقف في وجه الطلاق والاتساع به وقصيدته " المطلقة " من خير القصائد التي تصور عيوب هذه المشكلة.

ويظهر أن نفس الرصافي كانت تنطوي على كثير من المروءة والحنان والشفقة، فكان دائم التفكير في هذه الطبقة الشقية المحرومة التي نبذها المجتمع فلم يُعرها عنايته ولم يولها اهتمامه ، حتى النقود القليلة ضن بها عليها ، وتحول الرصافي إلى ما يشبه بوقا ، فهو ينفخ في الناس لعلهم يبصرون ما تحت أعينهم من آلام مشجية وأوجاع مضنية، واستعان في ذلك بمواقف مختلفة، تارة يختار أرملة ترضع طفلا و لا تجد كساء ولا قوتا يدر لها لبناء انما تجد الشقاء والعذاب والمسغبة ، وتارة أخرى نراه يختار أختالها فقدت زوجها وكبر يتيمها، وطلع عليها العيد وأطل صباحه و كانه وجه نحس يرسل عليها، شواظا من

البؤس والحزن . وينظران فيبصران الناس من حولهما فرحين مسرورين يدقون طبول العيد، أما هما فكسيران تاعسان يبكيان"1.

ويقول الأستاذ أحمد قبّش:

"وأطلق قصائده صرخات مجلجلة صور فيها مشاهد البؤس والألم ووصف مشاهد من صميم الواقع الاجتماعي السي، فدعا إلى محاربة التأخر و الجهل والجمود ونادى بالأخذ بأسباب العلم وحارب التعصب وتألم لحال المرأة وثار على التفاوت الطبقي والاستغلال الاجتماعي وندد بالظلم ولم يسكت على جور الولاة وكان يدعو إلى الثورة العارمة على الحكومات التي تستعبد شعوبها وكان الأحرى بها أن تخدمها وترعاها في أسلوب زاخر بالعاطفة متأجج بالشعور الوطني، مفتقر إلى الروعة والخيال والأناقة في التعبير، لكنه غني بالإحساس ونزعة التمرد على الظلم وعشق الحرية "2.

يقول الرصافي مبرزا أهمية تعليم المرأة، فيقول:

فحضن الأم مدرسة تسامت

بتربية البنين أو البنات

وأخلاق الوليد، تقاس حسنا

بأخلاق النساء الوالدات

وليس ربيب عالية المزايا

كمثل ربيب سافلة الصفات3

ويشكو الرصافي من شده الجهل الذي يخيم على النساء، ويحول بينهن وبين تربية الأبناء على الفضيلة، ويفزع الرصافي إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فيشكو لها تعنت المسلمين وجهلهم، لأنهم يرفضون تعليم النساء، فقد أصبحت العادات عندهم دينا يدينون به، فكان سببا في شقائهم وشقاء نساء هم فألزموهن الإقامة في البيوت وصدو هن عن سبيل الحياة والعلم:

---

[1] : دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص: ٦٦.٦٢

[2] : تاريخ الشعر العربي الحديث: ٤٠٢، ص: ٤٠٢

[3] : قضايا المرأة في الشعر العربي الحديث في مصر، ص: ٢٥٨

أم المؤمنين إليك نشكو

مصيبتنا بجهل المؤمنات

فتلک مصيبة يا أم منها

نكاد تغص بالماء الفرات

تخذنا بعدك العادات دينا

فأشقى المسلمون المسلمات

فقد ملكوا بهن سبيل خسر

وصدو هن عن سبل الحياة[1].

يتكلم رصافي كثيرا عن الإصلاح السياسي في شعره كما هو يدعو إلى إسقاط الحكومة الفردية واستبدا لها بنظام جمهوري ودستوري، فيقول:

حتامَ نبقى لعبة الحكومة

دامت تجر عنا نقيع الحنظل

تنحو بنا طرق البوار تحيفا

وتسومنا سوء العذاب الأهول

ما بالنا منها نخاف القتل إن

قمنا، أما سنموت إن لم نقتل؟[2]

يعبر الرصافي في الأبيات القادمة عن حالةٍ من الاستياء العميق والنقد اللاذع لقومه، إذ يراهم غارقين في الجهل وغير مدركين لحجم التحديات التي تحيط بهم. فهو لا يكتفي بوصف الواقع، بل يسعى إلى تنبيههم وإيقاظ وعيهم بأهمية العلم ودوره في نهضة الأمم. ويظهر من خلال كلماته حرصه

[1] : قضايا المرأة في الشعر العربي الحديث في مصر، ص: ٢٥٩

[2] : ديوان الرصافي بواسطة: الاتجاهات الأدبية لأنيس المقدسي: ٣٥

الشديد على مستقبلهم، إذ يحمّلهم مسؤولية التخلّف نتيجة إهمالهم للتعليم وابتعادهم عن أسباب التقدّم. ومن ثمّ، يتحوّل نقده إلى دعوة صريحة للإصلاح، تحثّ على التمسّك بالعلم باعتباره السبيل الوحيد لمواجهة الصعوبات وبناء مجتمعٍ واعٍ وقادر على النهوض.، وهو يقول:

يا قوم لا تتكلموا — إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا — مافاز إلا النوم
وتأخروا عن كل ما — يقضى بأن تتقدموا
ودعوا التفهم جانبا — فالخير أن لا تفهموا
وتثبتوا في جهلكم — فالشر أن تتعلموا
أما السياسة فاتركوا — ابداً وإلا تندموا
إن السياسة سرها — لو تعلمون مطلسم
وإذا أفضتم في المبا — ح من الحديث فجمجموا
والعدل لا تتوسموا — والظلم لا تتجهموا
من شاء منكم أن يعيش — اليوم وهو مكرم
فليمس لا سمع ولا — بصر لديه ولافم
لا يستحق كرامة — الا الأصم الأبكم
دعوا السعادة إنما — هي في الحياة توهم
فالعيش وهو منعم — كالعيش وهو مذمم
فارضوا بحكم الدهر مهما — كان فيه تحكم
وإذ ظلمتم فاضحكوا — طربا ولا تتظلموا
وإذا أهنتم فاشكروا — وإذا لطمتم فابسموا
إن قيل هذا شهدكم — مر فقولوا: علقم
أو قيل إن نهاركم — ليل فقولوا، مظلم

أو قيل إن ثمادكم   سيل فقولوا مفعم

أو قيل إن بلادكم   يا قوم سوف تقسم

فتحمدوا وتشكروا   وترنحوا وترنموا[1]

شعره مرآة صادقة للواقع:

تميّز نقد الرصافي بالوضوح والصراحة، إذ كان يبتعد عن الغموض والتعقيد ويعتمد لغة مباشرة قوية تصل إلى عامة الناس. وقد تأثر في ذلك بظروف عصره، حيث ساد الفقر والجهل والاستبداد والتفاوت الطبقي فجاء شعره مرآةً صادقةً للواقع، لا يجامل فيه أحدًا.

قصيدته المشهورة "الأرملة المرضعة":

كان الرصافي شديد الحساسية تجاه معاناة الفقراء، فصوّر بؤسهم تصويرًا مؤلمًا، ومن أشهر قصائده في ذلك الأرملة المرضعة، حيث يرسم مشهد أمٍّ فقيرة تعاني الجوع مع طفلها.

تمشي وتحمل باليُسْرى وليدَته   حَمْلًا على الصَّدْر مدعومًا بيُمناها

قد قمَّطتها بأهدام ممزَّقةٍ   في العين منشرها سَمج ومَطواها

ما أنسَ لا أنسَ أني كنتُ أسمعها   تشكو إلى ربها أوصابَ دنياها

تقول: يا ربُّ لا تترك بِلا لبنٍ   هذي الرضيعة وارحمني وإياها

ما تصنع الأم في تربيب طفلتها   إن مسَّها الضرُّ حتى جفَّ ثدياها٣

يا ربُّ ما حيلتي فيها وقد ذبلت   كزهرة الروض فَقْدُ الغيث أظماها

ما بالها وهْي طول الليل باكيةٌ   والأمُّ ساهرة تبكي لمبكاها

يكاد ينقدُّ قلبي حين أنظرها   تبكي وتفتح لي من جوعها فاها

ويلُمِّها طفلةً باتت مروَّعة   وبتُّ من حولها في الليل أرعاها!٤

تبكي لتشكوَ من داءٍ ألمَّ بها   ولست أفهم منها كُنهَ شكواها

[1]: راجع أعلام النثر والشعر في العصر العربي الحديث : ٢/٣٢٩

قد فاتها النطق كالعجماء أرحمها　　　ولست أعلم أي السقم آذاها

وَيح ابنتي إنَّ ريبَ الدهر روَّعها　　　بالفقر واليتم، آهًا منهما آها!

كانت مصيبتها بالفقر واحدةً　　　وموت والدها باليُتم ثنَّاها

هذه القصيدة تعد من أبرز نماذج الشعر الاجتماعي، وينتقد فيها الشاعر المجتمع نقدا لاذعا. فهو يقول أن الأرملة البائسة تعيش في فقر مدقع بلا معين ولا سند. ولا تجد ما يكفي من الغداء. فينعكس ذلك على طفلها الضعيف، من خلال هذه القصيدة يصور الرصافي قسوة الفقر والجوع، ويعرض صورة مؤلمة للجوع التي ينهك الأمة وطفلها، ومن خلال هذه القصيدة ينتقد المجتمع الذي يتجاهل هذه المآسي حيث يعيش الأغنياء في راحة وهدوء بينما تعاني الفقراء الجوع والفقر. حاول الرصافي من خلال هذه القصيدة أن يحرك مشاعر القراء ويدعوه إلى التعاطف مع هذه الفئة الضعيفة، كما يدعو إلى اهتمام بالأرامل والأيتام وتحقيق العدالة الاجتماعية. فهذه القصيدة من البداءة إلى النهاية تدعو إلى تعاطف إنساني عميق، كما تدعو إلى قضاء الفرق الكبير بين طبقات المجتمع.

نقد الجهل والتخلف:

رأى الرصافي أن الجهل هو أصل لكثير من مشكلات المجتمع، فهاجم التخلف الثقافي والفكري وانعدام التعليم، وكان يؤمن أن العلم هو طريق النهضة. ولذلك دعا إلى نشر التعليم بين الناس، فيقول:

ابنوا المدارس واستقصوا بها الأملا　　　حتى نُطاول في بنيانها زُحلا

جودوا عليها بما دَرَّت مكاسِبُكم　　　وقابلوا باحتقار كل من بَخِلا

أن كان للجهل في أحوالنا عِلَل　　　فالعلم كالطبّ يَشْفي تلكم العِللا

سيروا إلى العلم فيها سَير معتَزِم　　　ثم أركبوا الليل في تحصيله جَمَلا

لا تجعلوا العلم فيها كل غايتكم　　　بل علّموا النَشء علماً ينتج العملا

هذي مدارسكم شَروَى مزارعكم　　　فأنبتوا في ثراها ما علا وغلا[1]

[1] : معروف الرصافي، ديوان العراق، قصيدة: ابنوا المدارس واستقصوا بها الأملا

هذه الأبيات قالها الرصافي مبرزا أهمية التعليم في حياة الأمة، فإن التعليم هي الوسيلة الوحيدة التي تبنى عليها مستقبل الأجيال القادمة، حينما رأى الشاعر الأمة بعدم الاهتمام بالتعليم ففاض قلبه وتفتحت قريحته وقال هذه الأبيات الخالدة، إذا قمنا بقراءة هذه الأبيات بعمق، فيمكن لنا أن نعتبرها دموعا حارة انهمرت من قلب الشاعر لإيقاظ الأمة الغارقة في النوم العميق.

نقد النفاق الاجتماعي:

هاجم الرصافي فئة من الناس الذين يظهرون غير ما يبطنون، وخاصة رجال الدين المزيفين والمتظاهرين بالأخلاق. فصوّرهم بأنهم سبب فساد المجتمع، لأنهم يخدعون الناس باسم الدين. والأبيات التالية تسلط الضوء بشكل واضح على هذا النفاق المتواجد في الطبقات المختلفة من المثقفين ورجال الدين والسياسة، فيقول:

ركضوا بميدان التحامد خيلهم ... وسبوا من الأعراض غير مباح

لبسوا النفاق لهم دروعاً ... واعتدوا يتطاعنون من الخنا برماح

أضحوا كماة وشاية وسعاية ... ومن الضغائن هم شكاة سلاح

كالجاهلية غيرَ أنْ مُغارَهم ... في نهب كل خطيئة وجناح

إصلاحهم أعيا العقول لأنهم ... خُلِقت مفاسدهم لغير صلاح

من كل مرتكب الشنيع ولم يكد ... يثنيه عنه إذا لحاه اللاحي[1]

من خلال هذه الأبيات الشاعر ينتقد على المجتمع العربي المحافظ حيث يقول: "إن المجتمع يركض في ميدان التفاخر والمدح ولكنه في الحقيقة يعتدي على أعراض الناس، وهو أمر محرم. وبشبه النفاق بالدروع التي يلبسها الناس لإخفاء حقيقتهم، ثم يقول إنهم كماة أي فرسان في النميمة والوشاية، وتحركهم الأحقاد والضغائن، وهي سلاحهم الحقيقي، فمهارتهم ليست في الشرف بل في النميمة والعداوة، ويشبههم بأهل الجاهلية، لكن الفرق أنهم لا يغزون القبائل، بل بغزون القيم والأخلاق،

[1] : أنس بديوي، موسوعة روائع الشعر العربي، دار المعرفة، بيروت، لبنان

فإصلاحهم صعب جدا حتى أعجز العقول لأن فسادهم متجذر فيهم. فإنهم يرتكبون الأفعال القبيحة ولا يتوقفون عنها، وهم لا يستجيبون النصح ويستمرون في الخطأ.

نقد الظلم والاستبداد:

لم يكتفِ الرصافي بنقد المجتمع، بل وجّه نقدًا واضحًا للحكام والسلطة، فندد بـ الظلم السياسي واستغلال السلطة وغياب العدالة، فصوّر الفجوة الكبيرة بين الأغنياء والفقراء، وانتقد ترف الأغنياء وإهمالهم لمعاناة الفقراء وكان يرى أن المجتمع لا يمكن أن يستقر مع هذا الظلم. ولم يكن نقد الرصافي لمجرد الهجوم، بل كان يهدف إلى إصلاح المجتمع ونشر الوعي وتحقيق العدالة والدعوة إلى التقدم والنهضة.

وبالإيجاز يمكن القول إن شعر معروف الرصافي يمثّل نموذجًا بارزًا للشعر الاجتماعي الإصلاحي، حيث جمع بين قوة التعبير وصدق الرسالة. فقد استطاع أن يجعل من الشعر وسيلةً للنقد والبناء، لا للهدم فقط، فكان لسان حال المجتمع والأمة، وداعيةً إلى تغييره نحو الأفضل.

يقول الدكتور حلمي محمد القاعود مبينا خصائص أسلوب الرصافي:

"انشغل الرصافي بقضية الإنسان، ورغبته الجارفة ومشاعره الفياضة في التعاطف مع الناس والبر بالفقراء والمعوزين، والتخلي عن كل ما يشين أخلاقهم وعقولهم وفي سبيل ذلك أشاد بالعلم، ودعا إلى إنشاء المدارس والمعاهد، وتعليم المرأة، وإزالة الحواجز التي تعوق الشعب عن النهوض وهاجم الأمراض الاجتماعية مثل الطلاق، وتأثر الأحوال الأرامل الفقيرات من خلال إحساس مرهف بآلام الآخرين، وخاصة الطبقة الفقيرة الشقية المحرومة، وهذا الإحساس يتسع ليشمل الناس جميعاً داخل العراق وخارجه، المسلمين وغيرهم"1.

فنقد الرصافي يتميّز بالوضوح والصراحة، إذ كان يبتعد عن الغموض والتعقيد ويعتمد لغة مباشرة قوية تصل إلى عامة الناس. وقد تأثر في ذلك بظروف عصره، حيث ساد الفقر والجهل والاستبداد

[1] : الدكتور حلمي محمد القاعود، تطور الشعر العربي في العصر الحديث، ١١٤

والتفاوت الطبقي فجاء شعره مرآةً صادقةً للواقع، لا يجامل فيه أحدًا. وكان الرصافي شديد الحساسية تجاه معاناة الفقراء، فصوّر بؤسهم تصويرًا مؤلمًا، ومن أشهر قصائده في ذلك الأرملة المرضعة، حيث يرسم مشهد أمٍّ فقيرة تعاني الجوع مع طفلها. وكان يؤمن بأن العلم هو طريق النهضة ولذلك دعا إلى نشر التعليم بين الناس. وهاجم الرصافي فئة من الناس الذين يظهرون مظاهر التدين ولكن في حياتهم الشخصية يمارسون أعمال غير شرعية ونشاطات غير خلقية، وخاصة رجال الدين المزيفين والمتظاهرين بالأخلاق. فصوّرهم بأنهم سبب فساد المجتمع، لأنهم يخدعون الناس باسم الدين.

المراجع والمصادر

تاريخ الشعر العربي الحديث، ص: ٤٠٠-٤٠١

أعلام النثر والشعر في العصر العربي الحديث، ٢/٣٠٧ – ٣٠٨

دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص: ٦٦.٦٢

تاريخ الشعر العربي الحديث: ٤٠٢، ص: ٤٠٢

قضايا المرأة في الشعر العربي الحديث في مصر، ص: ٢٥٨

قضايا المرأة في الشعر العربي الحديث في مصر، ص: ٢٥٩

ديوان الرصافي بواسطة: الاتجاهات الأدبية لأنيس المقدسي: ٣٥

أعلام النثر والشعر في العصر العربي الحديث : ٢/٣٢٩

معروف الرصافي، ديوان العراق، قصيدة ، ابنوا المدارس واستقصوا بها الأملا